

اتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - ، وَاذْكُرُوا وَفُوفَكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اتِّتِلَافَ الْقُلُوبِ، وَاجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ مِنْ أَوْضَحِ صِفَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْمُخْلِصِينَ، الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ الْأُخُوَّةَ فِي الدِّينِ قَاعِدَةً وَأَسَاسَ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وَوَصَفَ أُمَّتَهُمْ بِأَنَّهَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وَلَمَّا كَانَ التَّفَرُّقُ وَالتَّنَاحُرُ وَالتَّدَابُّرُ مُبَايِنًا لِذَلِكَ كُلِّ الْمُبَايِنَةِ؛ لِأَنَّهُ مِعْوَلٌ هَدَمَ فِي بُنْيَانِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَسَبَبٌ لِتَقْوِيضِ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْخَيْرِيَّةِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهَا، جَاءَ التَّحْذِيرُ الرَّبَّانِيُّ مِنَ الْخِلَافِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ، فَحَمَلَهُمْ عَلَى التَّنَاحُرِ وَالتَّلَاعُنِ، مَعَ مَجِيءِ الْبَيِّنَاتِ الْهَادِيَاتِ الْمَانِعَاتِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ عَدَّ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا التَّفَرُّقَ فِي الدِّينِ وَالْإِخْتِلَافَ فِيهِ مُفْسِدًا لَهُ، وَمُقَوِّضًا لِأَرْكَانِهِ، وَعَامِلًا عَلَى الْإِنْفِصَالِ عَنْهُ، وَسَبَبًا لِبِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وَكَمَا جَاءَ هَذَا النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ، فَقَدْ جَاءَتْ تَكَالِيفُ الشَّرِيعَةِ بِكُلِّ سَبَبٍ يَضْمَنُ الْإِتِّلَافَ، وَيَحُولُ دُونَ التَّفَرُّقِ، فَمِنْ حَثٍّ عَلَى آدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فِي جَمَاعَةٍ بِالْمَسَاجِدِ، بِالتَّرْغِيبِ الْقَوِيِّ فِيهَا، وَالتَّحْذِيرِ الشَّدِيدِ مِنْ تَرْكِهَا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ أَمُرَّ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأَحْرِقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»، وَأَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ الْإِلْتِقَاءَ كُلَّ أُسْبُوعٍ لِسَمَاعِ الذِّكْرِ، وَأَدَاءِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَشُرَعَاجِ اجْتِمَاعٍ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ، وَجَعَلَ مَكَانَهُ الصَّحَرَاءِ، وَحَثَّ عَلَى حُضُورِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ - حَتَّى الْحَيْضِ مِنْهُنَّ - لِيَحْظَى بِهَذَا الْخَيْرِ الْعَدَدُ الْغَفِيرُ، وَيَعْمَ النَّفْعُ، وَفَرَضَ اللَّهُ ﷻ وَرَسُولُهُ ﷺ اجْتِمَاعًا يَضُمُّ حُشُودًا تَأْتِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، تَوْمُ الْبَيْتِ فِي زَمَانٍ مَعْلُومٍ لِأَدَاءِ شَعِيرَةِ الْحَجِّ، فَيَكُونُ الْإِتْقَاءُ هَذِهِ الْحُشُودِ أَمْرًا مَحْتُومًا لِشُهُودِ الْمَنَافِعِ الَّتِي تَأْتِي لِلشَّدِّ عَلَى الرِّوَابِطِ بَيْنَ الْإِخْوَةِ، وَالسَّعْيِ إِلَى تَوْحِيدِ صُفُوفِهِمْ، وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: السُّنَنُ الَّتِي سَنَّهَا رَسُولُ الْهُدَى ﷺ مِنَ الْوَصِيَّةِ بِالِاتِّحَادِ وَالِاجْتِمَاعِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ غَوَائِلِ الْفُرْقَةِ وَالتَّنَازُعِ، مَا يُفْصِحُ عَنْ شِدَّةِ حَرَصِهِ ﷺ عَلَى مَا يَحْفَظُ أَسْبَابَ ذَلِكَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ، وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ». فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ.

عِبَادَ اللَّهِ: لَمَّا كَانَ التَّطَاحُنُ وَالتَّنَازُعُ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا شَأْنَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ

ذَلِكَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ فِي خُطْبَةِ يَوْمِ النَّحْرِ كَمَا عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ، «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

وَلَمَّا كَانَ الْخُرُوجُ عَلَى إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الشَّقَاقِ وَالتَّنَازُعِ؛ فَقَدْ كَانَ التَّحْذِيرُ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ شَدِيدًا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ مُغْلَظَةً، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ عَرْفَجَةَ بْنِ شَرِيحٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ [أَي: فِتْنٌ وَأُمُورٌ حَادِثَةٌ]، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، أَوْ يُرِيدُ يَفْرُقَ أَمْرَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانِنًا مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ».

وَقَدْ كَانَ مِنْ شُؤْمِ التَّنَازُعِ وَوَبَالِهِ مَا حَصَلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّ مَا وَقَعَ مِنْ تَنَازُعٍ وَعِصْيَانٍ لِأَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ سَبَبَ مَا مُنَاوَاهُ مِنْ هَزِيمَةٍ فِي جِهَادٍ بَذَلُوا فِيهِ لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَوْعِظَةٍ وَعُظُّوا بِهَا بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ: أَنْ أُمِرُوا بِجَمْعِ صُفُوفِهِمْ، وَالْحَذَرِ مِنَ التَّنَازُعِ الْمُفْضِي إِلَى الْفُرْقَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. وَإِنَّهُ لَفِشَلٌ وَذَهَابٌ رِيحٍ لَا عَاصِمَ مِنْهُ، وَلَا مَنَاجَاةَ مِنْ غَوَائِلِهِ إِلَّا بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ؛ أَي: بِدِينِهِ، وَبِكِتَابِهِ، وَبِشَرْعِهِ، وَبِنَبْدِ التَّفَرُّقِ الْمُنْفِصِي إِلَى جَحْدِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا؛ إِذْ هَدَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ بَعْدِ عَدَاوَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَحْقَادِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَتَحَزُّبِهَا إِخْوَانًا فِي الدِّينِ، أَعْوَانًا عَلَى الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْإِخْتِلَافَ النَّاشِئَ عَنْ تَفَاوُتِ الْمَدَارِكِ فِي الْفَهْمِ، وَتَبَايُنِ الْعُقُولِ فِي الْإِسْتِنْبَاطِ، لَمْ يَكُنْ أَبَدًا وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِلْفُرْقَةِ وَالتَّنَازُعِ؛ لِأَنَّهُ اخْتِلَافٌ بَيْنَ مُجْتَهِدِينَ أَسَاغَهُ الشَّارِعُ، وَجَعَلَ الْأَمْرَ فِيهِ دَائِرًا بَيْنَ أَجْرَيْنِ لِمَنْ أَصَابَ، وَأَجْرٍ لِمَنْ أَخْطَأَ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». فَمَا دَامَ الْقَصْدُ صَحِيحًا، وَالْوَسِيلَةُ صَائِبَةً، وَالْأَهْلِيَّةُ قَائِمَةً، فَلَا مُوجِبَ لِلتَّنَازُعِ؛ إِذِ الْمَقْصُودُ مَعْرِفَةُ الْحَقِّ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَالِدَّلَالَةُ عَلَيْهِ؛ رَغْبَةً فِي التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، وَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْاجْتِمَاعِ لَا التَّفَرُّقِ، وَمِنْ عَوَامِلِ الْإِتِّحَادِ لَا التَّنَازُعِ.

عِبَادَ اللَّهِ: مَا أَحْسَنَ أَنْ يَكُونَ الْإِعْلَامُ بِمَا يُتِيحُهُ مِنْ وَسَائِلَ، وَمَا يُوقِّرُهُ مِنْ مَوَاقِعِ تَوَاصُلٍ سَبَبًا لِاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ، لَا أَنْ يَكُونَ عَامِلَ فُرْقَةٍ وَخُصُومَةٍ وَتَنَازُعٍ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ -، وَاعْمَلُوا عَلَى كُلِّ مَا يُحَقِّقُ اتِّحَادَ الْكَلِمَةِ، وَوَحْدَةَ الصَّفِّ، وَحَذَارٍ مِنَ التَّنَاحُرِ وَالتَّنَازُعِ وَالتَّفَرُّقِ الْمُؤْذِنِ بِالْفِشَلِ، وَذَهَابِ الرِّيحِ؛ فَإِنَّهُ أَسْوَأُ مَصِيرٍ يَنْتَظَرُ الْمُتَخَاصِمِينَ الْمُتَنَازِعِينَ.